مجلة الدراسات التربوية والعلمية - كلية التربية - الجامعة العراقية
العدد العشرون - المجلد الرابع - التاريخ - كانون الأول 2022 م
doi.org/10.52866/esj.2021.04.20.07

مواقف المؤرخين
من الصراع المملوكي الصليبي في سلطنة الأشرف خليل

ثناء رشيد كامل ، أ. د. محمد كريم الجميلي
الجامعة العراقية / كلية التربية - قسم التاريخ

مستخلص:

حكمت دولة المماليك البحرية حقبة طويلة من الزمن وكان من بين هؤلاء السلطان الأشرف خليل الذي كان له دور بطولي في طرد الصليبيين من سواحل مدن الشام فضلا عن تأمينه لها، حيث النشاط العسكري للدولة المملوكية واضح جداً في فتح وتحرير باقي مدن الشام وقد تباينت مواقف المؤرخين في تفاعلهم مع تلك الأحداث الجسيمة.

الكلمات المفتاحية: خليل، الأشرف، الصليبيين، عكا، الشام.

Thanaa rasheid kamel , Prof.dr. mohammed karim al-jumaily
Al-iraqia university / education colleg

Abstract :

The Mamluk Bahri state ruled for a long period of time, and among them was Sultan Al-Ashraf Khalil, who had a heroic role in expelling the Crusaders from the coasts of the cities of the Levant as well as securing them, as the military activity of the Mamluk state is very clear in the conquest and liberation of the rest of the cities of the Levant. their interaction with those major events.

Keywords: Khalil, Al-Ashraf, Crusaders, Acre, Levant.

المقدمة

كان عصر الأشرف خليل عصراً مهماً وخطيراً في تاريخ دولة المماليك التي حكمها بعض السلاطين المماليك الأقوياء الذين دافعوا عن ديار المسلمين بكل شجاعة وحمية وغيرة على البلاد والعباد، فنراهم قد حملوا السيف في سبيل الله همّهم في ذلك البلاد الشامية والمصرية التي كانوا يحكموها ودافعوا على جبهات متعددة كان بعضها في وقت واحد مما زاد من صعوبة المهمة ولكنهم كانوا فرسان حقيقيين لم يتوانوا عن أداء واجبهم في قتال الصليبيين على سواحل الشام حافظوا فيها على حدود دولتهم من الضياع مما أكسبهم احترام العالم الاسلامي آنذاك، وكان من هؤلاء السلطان الأشرف خليل الذي لم يدخر جهده في ذلك لينال شرف الدفاع عن مدن الثغور التي كانت تتعرض للغارات باستمرار باعتبار السواحل هدفاً مهما لم يتركه الصليبيون لأهميتها العسكرية فضلاً عن أطماعهم الاقتصادية في هذه المنطقة الحيوية من العالم الاسلامي.

وقد تم تقسيم البحث على ثلاثة مباحث مع مقدمة ونتائج وذكر قائمة لأهم المصادر والمراجع. كان المبحث الأول بعنوان: (**دور الأشرف خليل في فتح عكا**). والثاني بعنوان: (**موقف المؤرخين من مرحلة النشاط العسكري**). أما المبحث الثالث فكان بعنوان: (**مواقف المؤرخين من فتح مدن الساحل**).

المبحث الأول:

دور الأشرف خليل في فتح عكا

كان السلطان الأشرف بطلاً شجاعاً ذا همّة عالية ورياسة مرضية، واستفتح مُلكهُ بالجهاد سائراً على سياسة اسلافهِ بإخراج الصليبيين من بلاد الشام، فكان أول أعمالهِ حصار عكا متمماً بذلك ما عزم عليه أبيه السلطان المنصور[1].

عندما بدأ جيش السلطان المنصور قلاوون بالزحف الى بلاد الشام أدركته المنية فجأة في ذي القعدة سنة (689هـ/ 1290م)، فأمن سكان عكا عند سماعهم الخبر، إلا أنّ وفاة السلطان المنصور لم تغير الموقف السياسي بين المماليك وبين ما تبقى من الإمارات الصليبية في بلاد الشام، فقد كانت عكا عاصمة الصليبيين الكبرى في الشام، فضلاً عن كونها عُدت مركز مملكة بيت المقدس الصليبية، ولذلك أدرك الصليبيون أن ضياعها يعني نهاية عهدهم بالشام[2]، فحاول أمراؤهم التوسل الى السلطان الأشرف خليل بأن أرسلوا إليه رسلهم يطلبون منه العفو فلم يقبل ذلك منهم[3].

فتح عكا (690هـ/ 1291م):

وأمر السلطان الأشرف نوبه ببلاد الشام بإتخاذ الأهبة وتجهيز وسائل النقل ليحمل لذخائر وآلات الحصار الى أسوار عكا، كما ندب أمراءهُ الى الممالك ليحثهم على سرعة تجهيز المجانيق وآلات الحصار، فبادر النواب الى ذلك، وتوجه الجميع الى حصار عكا[4]، ووصل الملك هنري الثاني الى عكا على رأس مائتين من الفرسان، وخمسمائة من المشاة، وقدر كبير من الإمدادات والمؤن، ففرح الصليبيون بقدومه، وجرى استقبالهُ بكل مظاهر البهجة والسرور، وأشعلوا نيرانً لم يُرَ مثلها، فرحاً به، وتشجعوا على المقاومة والثبات[5].

---

(1) ابن شاهين، عبد الباسط بن خليل الملطي (ت:920هـ)، نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تح، محمد كمال الدين عز الدين علي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1987م، ص 81.

(2) عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ط1، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1964م، ص 47.

(3) المقريزي، السلوك، 2/ 222.

(4) البرزالي، المقتفي، 223/ 1.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 6/ 8.

تولى الملك هنري قيادة جيشه إلا أنه قد اتضح له بعد ذلك أنّ الأمر لا يخلو من الصعوبة بسبب قلة المدافعين عن المدينة، فحاول حل الأمر سلمياً مع السلطان فأرسل له فارسين من فرسان المعبد ليسألا السلطان لماذا خرق الهدنة، فقابلهم السلطان خارج خيمتهِ ولم يقبل بكلامهما، وأجابهم بأنه لا يعبأ بمصير السكان وأنه يريد مفاتيح المدينة، وأنه سوف يبقي على السكان إذا استسلموا له، وعندما أخفقت محاولة الملك هنري من التفاوض مع السلطان عزمَ على الدفاع عن عكا إلا أنه سرعان ما فقدَ الأمل في إنقاذها بسبب انحلال أمر الصليبيين واختلاف كلمتهم وعساكرهم[1].

وصل السلطان الأشرف الى المنزلة بعكا، ووصلت المجانيق الى عكا في اليوم التالي، وهي اثنان وتسعون منجنيقاًن فنُصبت وتكامل تنصيبها في أربعة ايام وأقيمت الستائر[2]، وبعد أن أكمل السلطان استعداداته أمام عكا، جدّ المسلمون في حصارها واجتمع عليها أمم لا يحصون[3]، وأخذت قوات السلطان بمهاجمة المدينة، وجدّت حاميتها بالدفاع عنها، إلاّ أن ذلك لم يُجدِ نفعاً أمام حماس المسلمين وإصرارهم على اقتحام المدينة، فألتجأ المدافعون عن المدينة الى الأبراج المتبقية، كما ابحرَ عدد كبير منهم بالسفن التي كانت راسية، فضلاً عن عودة هنري وجميع قواتهِ وفرسانه، ثم دخلها السلمون وأمر السلطان بـن يستنزل جميع من على الأبراج فضُربت أعناقهم عن آخرهم[4].

أما الداوية فقد اعتصموا بدارهم التي كانت بارزة في البحر في الجهة الشمالية الغربية من المدينة واستعدوا للمقاومة، ولما رأى السلطان حصانة موقعهم عرض عليهم إتفاقاً يقضي بالسماح لهم بالإبحار الى جزيرة قبرص بكل أمتعتهم بشرط أن يستسلموا له وهنا ظنّ الداوية أن القوات الإسلامية لن تستطيع الدخول الى موقعهم، وأحاطت القوات الإسلامية ببرجهم إحاطة السوار بالمعصم، وتمكن النقابون من نقبه، وبعد قتال ضارٍ بين الطرفين إنهار البناء وسقط البرج وبانهيارهِ سقط آخر معقل من معاقل الصليبيين بعكا، وكان ذلك بمثابة الضربة القاضي التي نزلت بالصليبيين في بلاد الشام.

وهكذا سقطت عكا بيد الجيش المملوكي في يوم الجمعة السابع عشر من جمادي الثانية عام (690هـ/ 1291م)، بعد حصار طويل دام أكثر من اربعة وأربعين يوماً، وغنم المسلمون وسبوا وأسروا وكان عدد الأسرى ثلاثة آلاف والقتلى لا يحصوا، فأمر السلطان الأشرف بتدميرها وهُدمت دورها الى الأرض ودُكّت دكّاً[5]، وبذلك قطع أمل الصليبيين في التواجد ببلاد الشام الذين حاولوا استعمال عكا كرأس حربة لإعادة الوجود الصليبي الى المشرق الاسلامي[6].

مع أنَّ معركة عكا كانت هي الحاسمة في قصة الصراع الإسلامي الصليبي، إلا أنه كان الى جانب عكا عدة مواقع صليبية كان من الضروري على السلطان الأشرف القضاء عليها، فبدأ بتحرير صور سنة (690هـ/ 1291م)، والتي تُعد من أمنع الحصون، لكن حاميتها كانت قليلة العدد، فأرسل إليها جيشاً بقيادة الأمير علم الدين سنجر الحلبي فدخلتها القوات المملوكية في شهر رجب من العام ذاته[7].

كما أرسل الى صيدا جيشاً بقيادة الأمير الشجاعي نائب دمشق، فقرر الداوية الدفاع عنها إلا أنهم كانوا قليلي العدد، فهاجروا المدينة واعتصموا بالقلعة إلا

(1) النويري، نهاية الأرب، 197/ 3.
(2) ابن تغري بردي، المصدر السابق، 5/ 8.
(3) اليافعي، مرآة الجنان، 157/ 4.
(4) ابو الفدا، المختصر، 25/ 4.
(5) المصدر نفسه، 25/ 4.
(6) غنيم، حامد، الجبهة الاسلامية في عهد الحروب الصليبية، ط1، مكتبة السياسية، القاهرة،1971م، ص22.
(7) أبو عليان، المرجع السابق، ص 91.

أنهم حاولوا ذلك عبثاً، فسيطرت القوات افسلامية على القلعة والمدينة معاً، وذلك في منتصف رجب سنة (690هـ/ 1291م)، وحرر في السنة الثانية مدينة حيفا دون مقاومة، وقتل رهبانها ودمرها[1].

ولم يمضِ أسبوع على دخول صيدا حتى ظهر الأمير الشجاعي أمام بيروت وكان سكانها يأملون بما عقدوه من الهدنة مع المماليك، ولكن الدولة المملوكية نبذت كل الهدن جانباً وأذعن قادة الحامية لأوامر الشجاعي، وقدموا إليه إلا أنهُ أسرهم، مما فتّ في عضد أتباعهم الذين تخاذلوا في الدفاع عن المدينة وفضلوا الفرار، فدخل الجيش المملوكي بيروت نهار الأحد الثالث والعشرين من رجب سنة (690هـ/ 1291م)[2]. وسقطت بيد السلطان خليل كل من عثليت وجبيل وانطرسوس وقلعة الروم سنة (691هـ/ 1292م)، ومن ثمّ سقطت باقي القلاع المجاورة وهنّ بهنسا ومرعش وتل حمدون سنة (692هـ/ 1293م)[3].

وبذلك كملت بهذه الفتوح جميع البلاد الساحلية، وتمّ طرد آخر البقايا الصليبية من بلاد الشام على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون الذي كان بطل آخر صفحات الحروب الصليبية في أرض الشام.

المبحث الثاني
موقف المؤرخين من مرحلة النشاط العسكري

لما كان للسلطان الأشرف خليل الدور الأكبر في طرد بقايا فلول الصليبيين من بلاد الشام، ولا سيما عكا عاصمتهم الكبيرة التي كانت تشكل تهديداً كبيراً على المسلمين، التي عدّها الصليبيون نقطة انطلاق لتحقيق حلمهم بالاستيلاء على بيت المقدس، لذلك انصبّ اهتمام المؤرخين بذكر أحداث فتوحاتها وفتوح ما حولها من القلاع التي سقطت بسقوط عكا بيد الجيش المملوكي.

ومن بين هؤلاء المؤرخين المؤرخ الذي عاصر هذه المعركة أبو الفدا الذي كان يحمل رتبة أمير عشرة[4] في الجيش المملوكي المحاصر لعكا، فقد ذهب الى ذكر فتوحاتها بشكل مفصل قائلاً[5]: (في جمادي الآخرة فُتحت عكا، وسبب ذلك أن السلطان الملك الأشرف سار بالعساكر المصرية الى عكا، وأرسل الى العساكر الشامية، وأمرهم بالحضور وأن يُحضروا صحبتهم المجانيق، فتوجه الملك المظفر صاحب حماة وعمه الملك الأفضل، وسائر عسكر حماة صحبته، الى حصن الأكراد، وتسلمنا منهُ منجنيقاً عظيماً يسمى المنصوري، حمل مائة عجلة، ففرقت في العسكر الحموي، وكان المسلم إليّ منه عجلة واحدة، لأني كنت إذ ذاك أمير عشرة، وكان مسيرنا بالعجل في أواخر فصل الشتاء، فاتفق وقوع الأمطار والثلوج علينا بين حصن الأكراد ودمشق، فقاسينا من ذلك بسبب جر العجل، وضعف البقر وموتها بسبب البرد، شدّة عظيمة، وسرنا بسبب العجل من حصن الأكراد الى عكا شهراً، وذلك مسير نحو ثمانية ايام للخيل على العادة، وكذلك أمر السلطان الملك الأشرف بجر المجانيق الكبار والصغار، ما لم يجتمع على غيرها، وكان نزول العساكر الإسلامية عليها في أوائل جمادي الأولى من هذه السنة، وإشتدّ عليها القتال ولم يغلق الفرنج غالب أبوابها، بل كانت مفتحة وهم يقاتلون فيها...).

(1) البرزالي، المقتفي، 244/ 1.
(2) صالح بن علي، تاريخ بيروت، ط1، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1998م، ص 44.
(3) أبو الفدا، المختصر، 386/ 13.
(4) أمير عشرة: رتبة عسكرية في الجيش المملوكي، ونصيب كل منهم في الحرب أمرة عشرة فرسان، ومن هذه الطبقة يعين صغار الولاة.
دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص 22.
(5) المختصر، 24/ 4.

يتبين لنا من هذا النص أنَّ أبا الفدا كان متفاعلاً في نقل الحدث التاريخي، كما بيّن لنا حجم المتاعب التي عانى منها الجيش في مسيرته من حصن الأكراد الى عكا، إذ استغرق وصولهم شهراً كاملاً وهم يجرون المجانيق والعجلات، وأشار ابو الفدا أنّ هذا الطريق يستغرق ثمانية أيام فقط، إذا كان السفر بالخيل، وهنا تتضح عزيمة وإصرار الجيش المملوكي الذي تحمل من المشقة والتعب ما لا يُحمل، ومع ذلك واصلوا مسيرهم الى عكا، ووصف ابو الفدا بداية الهجوم المشترك على المدينة إذ إنَّ أبواب المدينة لم تكن مغلقة بل مفتوحة، والقتال قائم بين الطرفين.

أما الدواداري فقد نقل لنا صورة من أروع صور البطولات في هذا الفتح، فوصف فيها أحوال اهل عكا عندما بدأت طلائع الجيش المملوكي بالوصول إليها، فضلاً عن ذكره الهيبة التي كان عليها ذلك الجيش الذي أنزل الرعب في قلوب الصليبيين وزعزع عزيمتهم، وقد كتب عن هذا[1]: (عزم السلطان على الزحف، فرتب الكوسات على ثلثماية جمل، ثم أصبح يوم الجمعة سابع عشرى، فزحف عليها بالجيوش بكرة النهار، قبل طلوع الشمس، وضربت الكوسات مع طبلخانات الأمراء مع الطنابك الجمالية، مع صراخ الأبطال وصهيل الخيل وقعقعة السلاح، فخُيل لأهل عكا أنّ القيامة قد قامت في تلك الساعة، فلم تطلع الشمس من الأبراج إلا والسناجق السلطانية الإسلامية على البدن[2] والأبراج،...).

ونقل لنا المنصوري أحداث ذلك الفتح من منظورهِ الخاص، فقد كان أحد المشاركين به، فوصف حالته عندما طلب من السلطان أن يأذن له بالخروج مع الجيش، فضلاً عن ذكره محاولات الصليبيين بإقناع السلطان حتى يحيد عن ذلك القرار، بقوله[3]: (وكنت حينئذٍ بالكرك، فلما بلغني أمر هذه الغزاة وودتُ علي مراسم السلطان بتجهيز الزردخانات والآلات تاقت نفسي الى الجهاد، وحنّت إليه حنو الأرض الضامية الى صوب العهاد، فطالعت السلطان بذلك وسألتهُ أن أصير الى هناك، لأساهم في ثواب الغزو وأشارك، فأذِن لي في الحضور وسمح بالدستور فكنتُ كمن فاز أمله بنجاحه، وإنجلى ليلهُ بصباحهِ، فجهزتُ من الزردخانات المانعة والآلات النافعة والرجال المجتهدين والرماة والحجارين والغزاة، والنجارين وتوجهتُ ملاقياً للسلطان فوافيتهُ وقد وصل الى غزة، فلقيت منه إكراماً وبشراً وإبتساماً وسرتُ في ركابه الى عكا، فلما نزل عليها حلق المحاق بأهليها وكانوا لما بلغهم حركة السلطان، لغزوهم ومسيره الى نحوهم قد أرسلوا الى ملوكهم الكبار واستدعو النجد من داخل البحار واجتمع بها جمع كبير من الديوية والاستبار وحصنوا الأبراج والأسوار وأظهروا المصابرة وعدم المبالاة بالمحاصرة، ولم يغلقوا المدينة باباً ولا أسدلوا دونها حجاباً فنصبت عليها المجانيق الإسلامية، وأحدقت بها العساكر المحمدية، وأرسلت عليها حجارة كالصواعق الصاعقة وسهاماً كالبوارق وضويقت أشد المضايقة، وهم مع ذلك يظهرون الجلد ولا يغلقون أبواب البلد ويهاجمون العسكر ليلاً ونهاراً ويقاتلون عليها قتالاً مدراراً...).

وبالنظر الى هذا النص نلاحظ قوة الروح المعنوية التي كان يتمتع بها كل فرد من افراد الجيش المملوكي، وكيف لا وقد سطر هذا الجيش نصراً مؤزراً أزال به براثن الصليبيين وآمالهم من أراضي الشام.

(1) كنز الدرر، 38/ 8.
(2) البدن: بدنة السور: أي القسم من السور لا يكون فيه برج، بل هو بين برجين.
زناتي، المرجع الشامل، ص41.
(3) زبدة الفكرة، ص 279-278.

وكتب البرزالي نصاً موجزاً عن ذلك الفتح بقوله[1]: (وصل السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل الى عكا في يوم الخميس ثالث شهر ربيع الآخر، وهو خامس نيسان، ومعه العساكر والوزير، وخيّم ضاهرها وأقام عليها محاصراً بالجيوش والمتطوعة من الفقهاء والصلحاء والخاصة والعامة، من البلدان شهراً ونصف، وفتحها الله على يده). أي البرزالي لم يكن متفاعلاً بل كان ناقلاً فقط.

وحذا الذهبي حذو البرزالي في ذكر هذا الفتح بإختصار[2]: (فسار بالجيوش الى الشام ونزل على عكا رابع ربيع الآخر، وجدّ المسلمون في حصارها واجتمع عليها أمم لا يحصون، فلما استحكمت النقوب وتهيأت أسباب الفتح أخذ أهلها في الهزيمة في البحر وأُفتتحت بالسيف بكرة الجمعة سابع عشر جمادي الأولى وصّير المسلمون سماءها أرضاً وطولها عرضاً).

أما ابن الوردي فقد كان اشد تفعلاً في نقل وقائع هذا الفتح ويتضح لنا ذلك من خلال نصه الآتي[3]: (في جمادي الآخرة فُتحت عكا، وذلك أن الملك الأشرف نازلها بالعساكر الإسلامية في أول جمادي الأولى وجرّ إليها المجانيق من جميع الحصون، .... وكان الحمويون برأس الميمنة على عادتهم فكانوا على جانب البحر، والبحر عن يمينهم إذا واجهوا عكا فكان يحضر إليهم مراكب مقبية بالخشب، الملبس جلود الجواميس ويرميهم الفرنج منها بالنشاب والجروخ[4] والقتال من قدامهم من جهة المدينة وعن يمينهم من البحر وأحضروا بطسة فيها منجنيق يرمي على الحمويين فهبت ريح شالتهُ وحطتهُ فانحطم المنجنيق ولم يعد، وكبس الفرنج العسكر ليلاً فهزموا اليزك[5] واتصلوا بالخيام وتعلقوا بالأطناب، وتكاثر عليهم العساكر فانهزموا الى البلد، وقُتل منهم جماعة وشدوا وضايقوا حتى فتحها الله تعالى يوم الجمعة سابع عشر جمادي الآخرة بالسيف، وهرب جماعة من أهلها في المراكب، وداخل البلد أبرجة عاصية بمنزلة القلاع تحصن بها عالم من الفرنج، فاستنزلوا وضُربت أعناقهم عن آخرهم وقتل المسلمون من عكا وغنموا ما يفوق الحصر، ثم هُدمت ودكّت دكاً، والعجب أن الفرنج أخذوها من صلاح الدين يوم الجمعة سابع عشر جمادي الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة وقتلوا من بها ففتحها صلاح الدين الأشرف يوم الجمعة سابع عشر جمادي الاخرة، فاتفق اليومان ولُقب السلطانين).

من النص السابق لابن الوردي نلاحظ أنه شبّه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بالسلطان صلاح الدين الأيوبي الذي كانت عكا تحت سيطرته حتى أخذها منه الصليبيين سنة (587هـ/ 1288م)، والجدير بالذكر أن السلطان الأشرف خليل قد استعادها منهم يوم الجمعة سابع عشر جمادي الآخرة، وهو مطابق لليوم والشهر الذي تمّ أخذها بها من قبل الصليبيين.

وكان اليافعي في ذكر فتح عكا ناقلاً فقط، فهو لم يبدي تفاعلاً مع هذا الحدث، وهو ما سنلاحظهُ من نصه الآتي[6]: (فسار بالجيوش الى الشام ونزل الى عكا في رابع ربيع الآخر، وجد المسلمون في حصارها، واجتمع عليها أمم لا يحصون، فلما استحكمت النقوب وتهيأت أساب الفتح، أخذ أهلها في الهزيمة في البحر، فافتتحت بالسيف بكرة الجمعة سابع عشر جمادي الأولى، وصير المسلمون سماءها ارضاً، وطولها عرضاً،...).

(1) المقتفي، 225/ 1.
(2) العبر، 371/ 3.
(3) تاريخ ابن الوردي، 229-228/ 2.
(4) الجروخ: مفردها جرخ، وهي آلة حربية تستعمل لرمي السهام والنفط والحجارة، ويقال لمستخدمها جرخي. زناتي، المرجع الشامل، ص 76.
(5) اليزك: رئيس العسس، ومن يراقب من مضى فيتبعه وتطلق دائماً على طلائع الجيش، الجاسوس الحارس الليلي. زناتي، المرجع السابق، ص275.
(6) مرآة الجنان، 157/ 4.

وهذا النص مشابه لنص الذهبي الذي سبق ذكره أي أن اليافعي نقل أحداث هذا الفتح عن الذهبي.

أما ابن كثير فقد بيّن لنا سبب هذا الفتح المبارك الذي تهيأ للجيش المملوكي، ونقل لنا أحداثه وتفاصيله، فضلاً عن فتح صور وصيدا[1]: (جاء البريد الى دمشق في مستهل ربيع الأول لتجهيز آلات الحصار لعكا، ونودي في دمشق الغزاة في سبيل الله الى عكا، وقد كان اهل عكا في هذا الحين، عدوا على من عندهم من تجار المسلمين فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأبرزت المناجيق الى ناحية الجسورة، وخرجت العامة والمتطوعة يجرون في العجل حتى الفقهاء والمدرسين والصلحاء، وتولى ساقها الأمير علم الدين الدويداري، وخرجت العساكر بين يدي نائب الشام، وخرج هو في آخرهم، ولحقه صاحب حماة الملك المظفر، وخرج الناس من كل صوب، واتصل بهم عسكر طرابلس وركب الأشرف من الديار المصرية، بعساكره قاصداً عكا، فتوالت الجيوش هناك، فنازلها يوم الخميس رابع ربيع الاخر، ونصبت عليها المناجيق من كل ناحية يمكن نصبها عليها، واجتهدوا غاية الاجتهاد في محاربتها والتضييق تعلى أهلها ... وصمم السلطان على الحصار فرتب الكوسات ثلاثمائة حمل، ثم زحف يوم الجمعة سابع عشر جمادي الأولى ودقت الكوسات جملة واحدة، عند طلوع الشمس وطلع المسلمون على الأسوار مع طلوع الشمس ونُصبت السناجق الإسلامية فوق أسوار البلد، فزلت الفرنج عند ذلك الإدبار وركبوا هاربين في مراكب التجار وقُتل منهم عدد لا يعلمه إلّا الله تعالى، وغنموا من الأمتعة والرقيق والبضائع شيئاً كثيراً جداً، وأمر السلطان بهدمها وتخريبها بحيث لا ينتفع بها بعد ذلك، فيسر الله فتحها نهار الجمعة، كما أخذتها الفرنج من المسلمين في يوم الجمعة، وسلمت صور وصيدا قيادتها الى الأشرف فأستوثق الساحل للمسلمين وتنظف من الكافرين فقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين).

وذهب المقريزي الى ذكر تفصيلة لم يذكرها سابقيه من المؤرخين وهي أنه عند استيلاء الجيش المملوكي على عكا، وأخذوا السبايا من النساء والصبيان أقبل إليهم عشرة آلاف نفر من الصليبيين طالبين الأمان ولكن السلطان لم يأمنهم فقام أمراء السلطان بقتلهم، وهذا ما سيؤكدهُ نص المقريزي[2]: (وهرب الفرنج في البحر وهلك منهم خلق كثير في الازدحام، والمسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون فقتلوا ما لا يُحصى عددهُ كثرة، وأخذوا النساء والصبيان ما يتجاوز الوصف، وكان عند فتحها أن أقبل من الفرنج نحو عشرة آلاف في هيئة مستأمنين، ففرقهم السلطان على الأمراء فقتلوهم عن آخرهم).

المبحث الثالث

مواقف المؤرخين من فتح مدن الساحل

أما عن فتح باقي السواحل فذكر المقريزي فتحها تباعاً بعد فتح عكا[3]: (وفُتحت صور وحيفا وعثليث وبعض صيدا بغير قتال، وفرّ أهلها خوفاً على أنفسهم فتسلمها الأمير علم الدين سنجر الشجاعي في بقية جمادي الأولى، فقدمت البشائر بتسليم مدينة صور في تاسع عشرة، وبتسليم صيدا في العشرين منه، وأن طائفة من الفرنج عصوا في برج منها، فأمر السلطان بهدم صور وصيدا وعثليث وحيفا...).

واكتفى ابن العماد بذكر ذلك الفتح بسطر واحد[4]: (فيها ولله الحمد والمنة فُتح ما كان بأيدي النصارى من بلاد الشام ولم يبق لهم بها حصن ولا معقل). أي أنه لم

(1) البداية والنهاية، 13/ 320 – 321 .

(2) السلوك، 223/ 2.

(3) المصدر نفسه، 224/ 2.

(4) شذرات الذهب، 718/ 7.

يكن متفاعلاً للحد الذي لم يذكر فيه المدن التي فُتحت.

وتفاعلَ ابن خلدون مع هذا الفتح ونقلهُ بشكل مفصل[1]: (ثم سار الأشرف أول سنة تسعين وستمائة لحصار عكا متمماً عزم أبيه فيها فجهّز العساكر واستنفر أهل الشام وخرج من القاهرة، فأخذ السير الى عكا ووافاه بها أمراء الشام، والمظفر بن المنصور صاحب حماه فحاصرها ورماها بالمجانيق، فهدم كثير من أبراجها وتلاها المقاتلة لاقتحامها فرشقوهم بالسهام من اللبود، وزحفوا في كنها وردموا الخندق بالتراب فحمل كل واحد منهم ما قدر عليه حتى طموه، وانتهوا الى الأبراج المتهدمة، فألصقوها بالأرض واقتحموا البلد من ناحيتها واستلحموا من كان فيها وأكثروا القتل والنهب ونجا الفل من العدو الى أبراجها الكبار التي بقيت ماثلة، فحاصرها عشراً آخر ثم اقتحمها عليهم فاستوعبهم السيف وكان الفتح منتصف جمادي سنة سبعين لمائة وثلاث سنين من ارتجاع الكفار لها من يد صلاح الدين سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وأمر الأشرف بتخريبها فخربت وبلغ الخبر الى الأفرنج بصور وصيدا وعتليه وحيفا فأجفلوا عنها وتركوها خاوية).

وذهب المنصوري الى ذكر باقي الحصون بعد الاستيلاء على عكا، فقد أولى المنصوري اهتمامه بالكتابة عن هذه الفتوحات ووضعها تحت عنوان (ذكر فتح الحصون التي أقر الله بها العيون)، وكتب عن ذلك متباهياً[2]: (وفي شهر جمادي الاخرة المذكور سهّل الله مرام هذه الحصون وهوّن أمرها ما لا هجس الظنون، إنه يهون وذلك أن السلطان لما فتح عكا وأمر بأخرابها فصيرت دكاً، وكانت ملكاً فعادت هلكاً، إمتلأت بمهابته قلوب الفرنجية وقذف الله رعبه في الأعمال الساحلية وخاف أهل الأماكن سطوته وخشوا نقمتهُ، فأجمعوا آراؤهم على الإذعان وطلب النجاة وتسليم البلاد في يد المسلمين فخرجوا منها كارهين وأخلوها راغمين وتسلمها السلطان بلا تعب ونصبَ سناجقه عليها فلا نصب وأغناه الجد السعيد والسعد الجديد عن أتعاب العساكر وإشهاد البواتر فما أشبه بأمر سميه وما اقرب وليه من وسميه، إلا أنه برز عليه ونال بالمعالجة والإقدام ما نالهُ ذلك بالمطاولة على تمادي الأعوام وأمر بهدمها جميعاً فهدمت).

وذكر أبو الفدا تلك الفتوحات بنفس التباهي[3]: (لما فتحت عكا ألقى الله تعالى الرعب في قلوب الفرنج الذين بساحل الشام، وأخلوا صيدا وبيروت وتسلمها الشجاعي في أواخر رجب، وكذلك هرب أهل مدينة صور، فأرسل السلطان وتسلمها، ثم تسلم عثليث في مستهل شعبان، ثم تسلم أنطرسوس في خامس شعبان، جميع ذلك في هذه السنة، أعني سنة تسعين وستمائة، وإتفق لهذا السلطان من السعادة، ما لم يتفق لغيره، من فتح هذه البلاد العظيمة، الحصينة، بغير قتال ولا تعب، وأمر بها فخربت عن آخرها، وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية والإسلامية، وكان أمراً لا يُطمع فيه ولا يُرام، وتطهر الشام والسواحل من الفرنج، بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخذ الديار المصرية، وعلى ملك دمشق وغيرها من الشام، فله الحمد والمنّة على ذلك...).

وحذا الدواداري حذوهما في التفاخر بهذا النصر[4]: (في نهار الأحد تاسع عشرة وردت البشاير بتسليم مدينة صور، وهروب الفرنج منها، وفي العشرين منه وردت البشاير بتسليم صيدا).

وكان لابن تغري بردي فلسفة وترتيب خاص في نقل هذه الأحداث، فلم يفوت شئ من الأخبار إلاّ ذكرها في كتابه، وعن آخر فتوحات الملك الأشرف

(1) تاريخ ابن خلدون، 464-463/ 5.
(2) زبدة الفكرة، ص 283-282.
(3) المختصر، 25/ 4.
(4) كنز الدرر، 310/ 8.

كتب[1]: (وكان السلطان عند منازلته لعكا قد جهز جماعة من الجند مقدمهم الأمير علم الدين سنجر الصوابي الجاشنكير الى صور لحفظ الطرق وتعرف الأخبار، وأمر بمضايقة صور، فبينما هو في ذلك لم يشعر إلّا بمراكب المنهزمين من عكا قد وافت الميناء التي لصور، فحال بينها وبين الميناء؛ فطلب أهل صور الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم، ويسلموا صور فأُجيبوا الى ذلك فتسلمها.

وصور من أجلّ الأماكن ومن الحصون المنيعة، ولم يفتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فيما فتح من الساحل، بل كان صلاح الدين كلما فتح مكاناً وأمنهم أوصلهم الى صور هذه لحصانتها ومنعته، فألقى الله تعالى في قلوب أهلها الرعب حتى سلموها من غير قتال، ولا منازلة، ولا كان الملك الأشرف في نفسه شئ من أمرها البتة، وعندما تسلمها جهز إليها من أخربها وهدم أسوارها وأبنيتها، ونقل من رخامها وأنقاضها شئ كثير)[2].

وعن أحوال أهالي حلب والديار المصرية بعد هذا النصر العظيم فقد ذهب ابن تغري بردي الى ذكرها على النحو الآتي[3]: (ثم رحل الأشرف عن عكا في بكرة نهار الأثنين خامس جمادي الآخرة، ودخل دمشق يوم الثنين ثاني عشرة بعد أن زينت له دمشق غاية الزينة، وعملت القباب بالشوارع من قريب المصلّى الى الباب الجديد، وحصل من الاحتفال لقدومهِ ما لا يوصف، ودخل وبين يديه الأسرى من الفرنج تحتهم الخيول وفي أرجلهم القيود، ومنهم الأمل من سناجق الفرنج المنكسة، وفيهم من حمل رمحاً عليه من رؤوس قتلى الفرنج، فكان لقدومه يوم عظيم، وأقام الأشرف بدمشق الى فجر نهار الأربعاء تاسع عشر رجب وعاد الى الديار المصرية، فدخلها يوم الاثنين تاسع شعبان؛ فاحتفل أيضاً أهل مصر لملاقاته احتفالاً عظيماً اضعاف احتفال اهل دمشق أطلق رسل صاحب عكا الذين كانوا معوقين بالقاهرة).

وكان لابن الشحنة نصيب في نقل هذه الأحداث بقوله[4]: (توجه الأشرف خليل الى عكا بالعساكر المصرية والشامية وحاصرها بالمناجيق وفتحها بالسيف، وغنم المسلمون غنيمة عظيمة، وهُدمت الى الأرض، وركبت الفرنج من ذلك فأخلوا صيدا وبيروت وعثلية وانطرسوس وصور وخربت جميعها، وخلت سواحل الشام من الفرنج).

وهنا تجدر الاشارة الى أنَّ السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، أكمل مهمة والده، وخرج على رأس الجيوش التي كان والدهُ أعدَّها لمحاربة الصليبيين، وقد هزمهم هزيمة نكراء واستولى على عكا وصيدا وحيفا وانطرسوس وعثليث، ويقال أنه أتمّ فتحها جميعها في (47) يوماً[5].

بعد إن استكمل السلطان الأشرف خليل تطهير بلاد الشام من الصليبيين لم يبقَ أمامه إلّا فتح قلعة الروم وذلك على خلفية تحالفهم مع كيخاتو خان المغول ضد دولة المماليك[6]، فسار السلطان بجيوشه الى دمشق ومعه وزيره شمس الدين بن السعلوس، وأنفق الأموال على عساكره وعن ذلك ذكر ابن الجزري[7]:

(1) النجوم الزاهرة، 8/ 8.
(2) النجوم الزاهرة، 8/ 8.
(3) المصدر نفسه، 8/ 10.
(4) روض المناظر، ص 270 – 271.
(5) الحداد، السلطان المنصور قلاوون، ص 95.
(6) الملغوث، سامي بن عبد الله بن أحمد، أطلس تاريخ العصر المملوكي، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض،1433هـ، ص94.
(7) ابن الجزري، شمس الدين أبي عبد الله بن محمد بن ابراهين (ت:738هـ)، حوادث الزمان وانبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه (تاريخ ابن الجزري)، تح، عمر عبد السلام تدمري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1998م، 1/101.

(توجه السلطان الملك الأشرف من مصر الى الشام بجميع العساكر فدخل دمشق يم السبت سادس جمادي الأول وفي صحبته وزيره الصاحب شمس الدين بن السعلوس، وفي ثامن جمادي الأول: أحضروا الأموال وانفقوا في جميع العساكر المنصورة المصرية والشامية ... ثم توجه الملك الأشرف بجميع العساكر المنصورة الشامية والمصرية من دمشق يوم الأثنين سادس عشر جمادي الأول الخامسة عن النهار وبلغنا أنه دخل حلب ثامن عشرين جمادي، وانه سافر منها رابع جمادي الآخر ونزل على قلعة الروم بجميع العساكر المنصورة -نصرهم الله تعالى- يوم الثلاثاء ثامن جمادي الآخر محاصرين لها الى أن افتتحها بالسيف قهراً يوم السبت حادي عشر رجب، فأمروا في الحال بدق البشائر وزينت دمشق فبقيت البشائر تدق بالقلعة ودور الأمراء والشموع توقد بالليل سبعة أيام).

كما ذكرها الغزي[1] بقوله: (في سنة 691هـ وصل الى حلب الملك الأشرف صاحب مصر ومعه جيش كبير من العساكر قاصداً فتح قلعة الروم من الأرمن فسار إليها ونازلها ونصب عليها المجانيق ودام الحصار عليها حتى فتحت بالسيف يوم السبت حادي عشر رجب، وقتل من أهلها وسبى من ذراريها عدة كثيرة).

ووضح ابن حبيب أنَّ السلطان الأشرف تمكن من الاستيلاء على قلعة الروم ومن ثمّ أسر خليفة الأرمن وكل من معه[2]: (خرج السلطان من الديار المصرية لفتح قلعة الروم، فلما وصل الى الشام جمع العساكر المصرية والشامية، وتوجه بهم الى حلب ثم سار إليها فنازلها، وجدّ في حصارها شهراً الى فُتحت بالسيف، وقُتل أهلها وسُبيت ذراريها، وأعتصم خليفة الأرمن ومن معه بقلعة القلعة المذكورة، فرسم السلطان أن يرموا بالمنجنيق، فطلبوا الأمان فأمنهم على أرواحهم خاصة، وأن يكونوا أسرى فأجابوا الى ذلك فأخذ الخليفة ومن معه مأسورين...)..

وتفاخر المقريزي بنصر السلطان الأشرف وذهب الى ذكره قائلاً[3]: (ثم خرج في ثامن ربيع الآخر سنة إحدى وتسعين وستمائة بعد ما نادى بالنفير للجهاد، فدخل دمشق وعرض العساكر ومضى منها فمر على حلب ونازل قلعة الروم ونصب عليها عشرين منجنيقاً، حتى فتحها بعد ثلاثة وثلاثين يوماً عنوةً، وقتل من بها من النصارى الأرمن وسبى نسائهم وأولادهم وسماها قلعة المسلمين فعُرفت بذلك...).

نتائج البحث

1- ان السلطان الاشرف خليل سار على سياسة اسلافه في الوقوف بوجه الصليبيين واسترداد الاراضي العربية منهم بقوة السيف.
2- تمكن السلطان الاشرف من استرداد عكا التي تعد عاصمة الصليبيين الكبرى ومركز مملكة بيت المقدس الصليبية.
3- بعد استرداد عكا قطع امل الصليبيين في التواجد ببلاد الشام بعد ان كانوا يستخدمون عكا كرأس حربة لإعادة الوجود الصليبي الى المشرق الاسلامي.
4- تفاعل اغلب المؤرخين مع هذا الفتح العظيم الذي انهى والى الابد التواجد الصليبي في بلاد الشام، كما اثنى المؤرخون على جهود السلطان الاشرف خليل في تلك المعركة الحاسمة.

(1) الغزي، كامل بن حسين بن محمد (ت:1351هـ)، نهر الذهب في تاريخ حلب، ط2، دار القلم، حلب،1419هـ، 3/ 140.
(2) تذكرة النبيه، 1/ 149.
(3) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ، 3/ 416.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأولية

-البرزالي، علم الدين القاسم بن محمد الاشبيلي (ت:739هـ).
1-المقتفى على كتاب الروضتين، تح: عمر عبد السلام، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2006م.
-ابن تغري بردي، ابو المحاسن جمال الدين يوسف بن عبد الله (ت:874هـ).
2-النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، القاهرة، ب ت.
-ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الاشبيلي (ت:808هـ).
3-العبر وديوان المبتدا والخبر، تح: خليل شحاذة، ط2، دار الفكر، بيروت، 1988م.
-الدواداري، عبد الله بن ايبك (ت:713هـ).
4-كنز الدرر وجامع الغرر، تح: أونرخ هارمان، طبعة القاهرة، 1971م.
-ابن شاهين، عبد الباسط بن خليل الملطي (ت: 920هـ).
5-نزهة الاساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تح: محمد كمال الدين، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1987م.
-ابن الشحنة، محب الدين ابي الوليد محمد بن محمد (ت:815هـ).
6-روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، تح: محمد مهنا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
-ابن العماد الحنبلي، ابو الفلاح عبد الحي بن احمد (ت:1089هـ).
7-شذرات الذهب في اخبار من ذهب، تح: محمد الارناؤوط، ط1، دار ابن كثير، دمشق، 1986م.
-ابو الفدا، عماد الدين اسماعيل (ت:732هـ).
8-المختصر في اخبار البشر، ط1، المطبعة الحسينية، القاهرة، د تز
-ابن كثير، اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت:747هـ).
9-البداية والنهاية، تح: علي شيري، ط1، دار احياء التراث العربي، بيروت، 1981م.
-المقريزي، أحمد بن علي (ت: 845هـ).
10-السلوك لمعرفة دول الملوك، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
-المنصوري، الأمير ركن الدين بيبرس، (ت:725هـ).
11-التحفة الملوكية في الدولة التركية، ط1، الدار المصرية اللبنانية للنشر، القاهرة، 1407هـ.
-النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت:733هـ).
12-نهاية الارب في فنون الأدب، ط1، دار الكتب والوثائق، القاهرة، 1423هـ.
-ابن الوردي، عمر بن مظفر (ت:749هـ).
13- تاريخ ابن الوردي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م.
-اليافعي، عفيف الدين عبد الله بن أسعد (ت:768هـ).
14- مرآة الجنان وعبرة اليقضان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.

ثانياً: المراجع الحديثة

-دهمان، محمد أحمد
15-معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط1، دار الفكر، دمشق، 1990م.
-زناتي، انور.
16-المرجع الشامل في مصادر التاريخ والحضارة الاسلامية، دار مرايا، دبي، 2017م.
-عاشور، سعيد عبد الفتاح.

17-اضواء جديدة على الحروب الصليبية، ط1، الدار المصرية للتاليف والنشر والترجمة، القاهرة، 1964م.
-ابو عليان، عزمي.
18-مسيرة الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك، ط1، دار النفائس، الاردن، 1995م.
-غنيم، حامد.
19-الجبهة الاسلامية في عهد الحروب الصليبية، ط1، مكتبة السياسة، القاهرة، 1971م.
- الملغوث، سامي بن عبد الله بن أحمد.
20- أطلس تاريخ العصر المملوكي، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض،1433هـ.